

المحاضرة التاسعة

الفكر الاقتصادي الأوروبي الحديث (تابع)

خامسا: المدرسة الاشتراكية

يطلق مصطلح الاشتراكية للتعبير عن معاني مختلفة، فهو يطلق أحيانا على تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، أو مجرد تملك الدولة لبعض المشروعات الاقتصادية، وأحيانا أخرى يطلق على تدخل الدولة لتحسين أحوال الطبقات العاملة والفقيرة من خلال سن التشريعات الاجتماعية التي تعمل على تحقيق هذا الهدف.

و بشكل عام الاشتراكية تستند على النزعة الجماعية وبذلك فهي تتناقض مع مضمون فكرة النزعة الفردية التي تستند إليها الرأسمالية. ففي الوقت الذي تستند الرأسمالية على مبدأ حرية التملك للأفراد وحرية العمل والمبادرة الفردية في المجال الاقتصادي وحرية التعاقد ضمن إطار المصلحة الفردية، فإن الاشتراكية نقيض الرأسمالية حيث لا وجود لنظام السوق ولا دور له في تحديد حجم ونوع السلع والخدمات، لأن كل هذه الأمور تحدها أجهزة التخطيط المركزي.

I - ظهور الفكر الاشتراكي: يمكن إرجاع بداية الفكر الاشتراكي إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر في أوروبا، عندما رفع العديد من المفكرين والكتاب أصواتهم منددين بالرأسمالية وداعين إلى خلق نظام اجتماعي جديد يكون أكثر انسجاما واقرب إلى تحقيق العدالة والكرامة الإنسانية.

فبعد أن استقر النظام الرأسمالي وثبت أقدامه بعد الثورة الصناعية، أصبح إنتاج السلع والخدمات يتم على نطاق كبير جدا، غير أن فوائد ذلك لم توزع بالتساوي، بل العكس حيث تركزت أدوات الإنتاج في أيدي فئة قليلة من الرأسماليين، وتحول الملايين إلى عمال فقراء فالأجور منخفضة وساعات العمل طويلة وظروف المعيشة صعبة. إلى جانب ذلك اختفت المنافسة الحرة لتحل محلها احتكار القلة. لهذا ظهر تيار فكري جديد يعارض وينقد النظام الرأسمالي، ويطالب بتدخل الدولة من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة وحماية المسار الاقتصادي.

وتجدر الإشارة إلى أن الفكر الاشتراكي لا يشكل مدرسة واحدة بل عدة مدارس اشتراكية لها مفاهيم مختلفة ومتنوعة فمنها ما يندرج ضمن مفهوم الاشتراكية الخيالية أو الطوباوية ومنها ما يعرف بمفهوم الاشتراكية العلمية أو الماركسية... ورغم اختلاف المفاهيم الاشتراكية فيما بينها إلا أننا نجد بأن المفكرين الاشتراكيين على اختلافاتهم قد اتفقوا جميعا على نقطة واحدة هي نقد النظام الرأسمالي وخصوصا فكرة الانسجام التلقائي بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة كما يدعي مفكرو النظام الرأسمالي.

II - الاشتراكية الخيالية (الطوباوية). يرى بعض مؤرخي الفكر الاقتصادي أن الاشتراكية الخيالية- كما تسمى أيضا المثالية- هي تيار فكري فرنسي استمد جذوره من الفلسفة اليونانية القديمة وبالتحديد أفكار أفلاطون الذي تصور حالة الدولة المثالية التي تستند على العدل والمساواة والحياة الطيبة، وقد أعيد تجديد هذا الفكر الاشتراكي المثالي في القرن التاسع عشر كفكر معارض للنظام الرأسمالي، فقد ذهب رواد هذا الفكر إلى تخيل نظام خال من الملكية الفردية يعيش الناس في ظلها في كفاية ورفاهية. ومن هؤلاء الرواد (سان سيمون)، (فورييه)، (سيسموني)، وروبرت أوين) وغيرهم. وقد صاغ هؤلاء الرواد كلمة اشتراكية من كلمة Social أي الاجتماعي لتقابل لفظ فردي Individual وذلك لإبراز المسألة الاجتماعية ونقد ظاهرة التركيز على الفرد باعتباره الوحدة الاقتصادية الرئيسية -بالنسبة للرأسماليين-.

1- سان سيمون (1760-1835): عايش الثورة الصناعية، اعتبر الحرية الاقتصادية هي مصدر البؤس والشقاء، غير أنه لم يعارض الملكية الخاصة وطالب بإدخال إصلاحات عليها كما أقر بأن النشاط الاقتصادي ينشأ عن طريق التضامن بين مختلف القطاعات.

2- سيسموني (1773-1842): عرف المفكر السويسري سيموندي (simonde de) كإقتصادي ومؤرخ، وقد اشتهر في حياته بعواطفه الإنسانية في الدفاع عن العمال وسكان المستعمرات. كان من أنصار الحرية الاقتصادية ولكنه ما لبث أن عارض الكثير من أفكارهم، وهو لا يبني معارضته على أساس رفض المبادئ التي تضمنتها النظرية التقليدية بقدر ما كانت معارضته مبنية على أساس ضرورة تغيير المنهج الواجب الإلتباع في دراسة الاقتصاد وإعادة النظر في موضوع علم الاقتصاد وأخيرا التشكيك في النتائج العملية المستخلصة من تلك النظرية، فأسلوب الدراسة المجرد والمنهج المنطقي لا يلائم الاقتصاد الذي هو علم أخلاقي يرتكز على الملاحظة ودراسة التاريخ. كذلك فإن سيسموني يرى أن موضوع الدراسة ليس الثروة وإنما الإنسان. وقد كان من أوائل من أثاروا الشك حول فكرة الانسجام بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة، كما كان من أنصار تدخل الدولة.

3- روبرت أوين (1771-1858): يعتبر روبرت أوين ولا شك شخصية فريدة، فهو أحد دعاة الاشتراكية وأبو الحركة التعاونية فضلا عن أنه كان رجل أعمال انجليزي ناجحا. وقد قام بدعوة ضخمة لإصلاح أحوال العمال، ولعله كان أول من استخدم شعار "الاشتراكية" لدعوته، ومع ذلك، فإنه لم يكن ثوريا يطالب باستخدام العنف، وإنما ينصح بالعمل الجماعي لخلق مجتمع جديد. وقد بدأ بتطبيق أفكاره في تحسين أحوال العمال في مصنعه، فخفض ساعات العمل من سبعة عشر ساعة إلى عشر ساعات فقط وامتنع عن تشغيل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، وأنشأ مدارس لتعليم أبناء العمال لديه، قام ببناء بيوت صحية لعماله، وأقام متاجر بأسعار رخيصة لخدمة الطبقة العاملة. رفض الحصول على أرباح وكان يرى أن السلع ينبغي أن لا تباع بأكثر من نفقة إنتاجها. ودعا الحكومات للتدخل بالتشريع لحماية

حقوق العمال. وقد حقق بعض النجاح في هذا الميدان حيث صدرت عدة تشريعات تمنع تشغيل الأطفال تحت سن معينة تحت تأثير كتاباته هو وغيره من المصلحين.

4- شارل فورييه (1772-1837): فرنسي بدأ حياته كعامل في الصناعة. وفي عام 1829 أصدر كتابا ضمنه فلسفته المثالية. ومن أهم أفكاره **الفلانستير (phalanstere)** وهو الاسم الذي اختاره فورييه لمدينته الفاضلة، وهي عبارة عن فندق ضخم يتسع 1500 شخص يعيشون حياة متماثلة ومشاركة في مختلف جوانب الحياة، ويصف فورييه بتفصيل غريب هذه الجوانب المختلفة للحياة، ويختلف الفلانستير عن الفندق العادي في أنه لا يقتصر فقط على الأغنياء بل يتسع لغيرهم (وقد عدد فورييه خمس طبقات تدفع أثمانا مختلفة للإقامة، ومنها طبقة إقامتها مجانية). كذلك يختلف الفلانستير عن الفندق في أنه لا يجمع النزلاء العابرين، وإنما يضم مجموعة الشركاء المتعاونين، ومن ثم يضمن قيام صلة وثيقة بينهم. ولذلك نجد هنا نوعا من الاشتراك في المعيشة الجماعية، ويذهب فورييه إلى أن هذه المعيشة المشتركة ستؤدي إلى تخفيض النفقات بشكل واضح. ويقوم ببيان ذلك بحسابات وتفصيل كثيرة ومملة، أما من الناحية الاجتماعية فإن المعيشة المشتركة ستؤدي إلى خلق بيئة جديدة صالحة مختلفة عن البيئة الفاسدة التي يعيش فيها الفرد في ظل النظام الرأسمالي الصناعي.

III - الاشتراكية العلمية (الماركسية) وهي الاشتراكية الناشئة عن التحليل العلمي الواعي للمجتمع ولظروفه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية، وهي كنظرية تنسب إلى كارل ماركس*. وسميت بالعلمية لأن ماركس حاول عن طريق التحليل العلمي أن يظهر أن النظام الرأسمالي سيقضى عليه نتيجة للتطور التاريخي وستحل محله الاشتراكية.

1- الأسس الفلسفية للتحليلات الماركسية: اعتمد كارل ماركس في تحليله من الناحية الفلسفية على نظريتين:

1-1 نظرية التطور الديالكتيكي: تأثر ماركس في تكوينه الفلسفي في شبابه بآراء الفيلسوف الألماني هيجل حول الديالكتيك أو الجدلية (Dialectic) التي فسر بها تطور الفكر الإنساني. فقد جعل هيجل من الفكرة الحقيقية المطلقة والتجربة. وحسب رأيه فإن أي فكرة عندما توجد تحمل في طياتها بذور فنائها، لأنها

* ولد كارل ماركس في سنة 1818 في مدينة تريير trier البروسية لعائلة بورجوازية من أصل يهودي. درس القانون في جامعة بون، ثم انتقل إلى جامعة برلين ودرس بها الفلسفة والتاريخ وقد فضل أن يقدم رسالته للدكتوراه في الفلسفة إلى جامعة جينا jena الأكثر تساهلا من جامعة برلين. وأثناء إقامته في برلين، انضم إلى جماعة "الشباب الهيجليالييسارية" وبدأ كارل حياته العملية بالعمل في الصحافة وخاصة الصحف اليسارية، والثورية، وفصل من أكثر من صحيفة، وانتقل في 1834 إلى باريس وتعرف فيها على عدد من الاشتراكيين الفرنسيين، كما تعرف على صديق عمره فريدريك إنجلز، وهو أحد رجال الأعمال من أصل ألماني، أصدر ماركس عدة مؤلفات في الفلسفة والسياسة ولكن أهمها هو كتاب رأس المال.

لا تتسم بالكمال المطلق فتنشأ فكرة أخرى نقيضة لها وتسمى هذه الظاهرة التناقض، ومن تصادم النقيض مع الفكرة الأولى تنشأ فكرة جديدة هي نقيض النقيض. وعندما توجد هذه الأخيرة تصبح فكرة جديدة. وتنشأ مع تصادمها مع نقيض جديد لها فكرة جديدة. وهكذا يصيح الفكر الإنساني في تطور مستمر حسب هيجل. أما كارل ماركس فقد أخذ هذه النظرية عن هيجل ولكنه خرج عليها لأنه لم يسلم بأن الفكر هو الذي يحرك التطور الإنساني. ويقول أن القوة المحركة في التاريخ ليست الفكر بل قوى الإنتاج وكلما تطور قوى الإنتاج يمر التاريخ بمراحل تتطور تتماشى مع نمو وتطور قوى الإنتاج.

1-2 نظرية التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ: طبق ماركس فكرة التطور الديالكتيكي على النظم الاجتماعية. حيث يقول إن كل نظام اجتماعي يحمل في ثناياه عوامل فنائه، وبذلك ينتقل التاريخ من نظام اجتماعي إلى آخر نتيجة لعوامل التطور. ويقول أنه عندما تتطور قوى الإنتاج (التي هي علاقات تعاونية) وتصل إلى مرحلة معينة، تصطدم مع علاقات الإنتاج القائمة أي علاقات الملكية التي هي فردية، تتحول هذه العلاقات إلى أغلال تعيق تطور قوى الإنتاج. وهنا تبدأ الثورة الاجتماعية لتحل هذا التناقض بين قوى الإنتاج الاجتماعية وعلاقات الإنتاج الفردية. وبذلك يؤكد ماركس بأن تاريخ المجتمع البشري لم يكن إلا تاريخ لصراع الطبقات الاجتماعية.

2 - التحليل الاقتصادي للمدرسة الماركسية: الاشتراكية في نظر الماركسية هي نظام اقتصادي اجتماعي يتميز بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وغياب استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وان الإنتاج الاجتماعي يخضع للتخطيط على نطاق المجتمع بأسره. وبدلاً من أن يكون هدف الإنتاج هو الربح لمالكي وسائل الإنتاج فإن الهدف هنا هو تلبية حاجات الناس وإنهاء الاستغلال.

ويتمحور التحليل الاقتصادي للمدرسة الماركسية حول الأفكار والنظريات التالية:

1-2 نظرية قيمة العمل وفائض القيمة: أخذ ماركس نظرية قيمة العمل من المدرسة الكلاسيكية، حيث تتحدد قيمة أي سلعة بعدد ساعات العمل المبذولة في صنعها. فالعامل يبيع قوة عمله ويشترها منه الرأسمالي طبقاً لنظرية القيمة. وتتحدد قيمة العمل بعدد ساعات العمل اللازمة لإنتاجها، أي الساعات الضرورية لإنتاج ما يلزم العامل من ضروريات الحياة.

ويضيف ماركس بأن الرأسمالي بعد أن يشتري من العامل قوة عمله فإنه يقوم بتشغيل هذه القوة عدداً من الساعات أكبر من الساعات التي دفع قيمتها فعلاً. والفرق بين الاثنين يمثل فائض القيمة الذي يحصل عليه الرأسمالي. بمعنى أبسط، يرى ماركس أن العامل يعمل ثماني أو عشر ساعات ولكنه لا يحصل على أجر إلا على ست ساعات فقط. هذا الجزء من العمل الذي يؤديه العامل ولا يحصل على أجر مقابله أطلق عليه ماركس "فائض القيمة" الذي يستولي عليه الرأسماليون وهو سر تكوين رأس المال عند ماركس.

2-2 قانون تراكم رأس المال: هو التعبير الديناميكي للنشاط الاقتصادي في ظل الرأسمالية، ويتضمن التجميع (التراكم) تحويل فائض القيمة إلى رأس مال - حسب ماركس أساس تراكم رأس المال هو فائض القيمة- ووفقا لماركس هذا الفائض لا يتحقق إلا بعد بيع السلعة وتحصيل قيمتها في صورة نقدية، فإذا ما حدث ذلك يمكن بعدئذ استغلال هذا الفائض -في صورته النقدية- في الإكثار من رأس المال.

2-3 تركيز رأس المال: ويقصد بذلك أن النظام الرأسمالي يعرف ظاهرتين، الأولى: أن المشروعات تتجه إلى استخدام وسائل إنتاجية أكثر رأسمالية (زيادة التركيب العضوي لرأس المال*)، وأما الظاهرة الثانية التي يعرفها النظام الرأسمالي فهي الاتجاه نحو تركيز المشروعات في عدد قليل من الوحدات الكبيرة، وبعبارة أخرى اتجاه النظام الرأسمالي نحو الاحتكار وهكذا فإن النظام الرأسمالي يتجه في تطوره نحو تركيز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة وتحويل عدد كبير من صغار المنتجين والتجار إلى مجرد عمال.

2-4 نظرية التفجير: كان الاقتصاديون التقليديون يرون أن الأجور تتحدد في ظل النظام الرأسمالي عند الحد الأدنى اللازم للمعيشة ولا يمكن أن ترتفع عن ذلك، وقد ارتبط ذلك عندهم بنظرتهم في السكان وقد انتهى ماركس إلى النتيجة نفسها، وإن توصل إليها بتحليل مختلف، فعند ماركس يبقى النظام الرأسمالي العمال في حالة فقر مستمر، ولا يمكن أن تزيد الأجور عن مستوى الكفاف، وقد ربط ماركس هذه النتيجة بتحليله لتطور النظام الرأسمالي. فهذا النظام يميل إلى زيادة التركيب العضوي لرأس المال، وهذا من شأنه إنقاص الطلب على العمال، وبذلك يزيد عرض العمال على طلبهم ويظهر فائض في عرض العمل مما يؤدي إلى انخفاض أجورهم باستمرار. ولذلك فإن الطبقة العاملة وهي تقوم بإنتاج الآلات ووسائل الإنتاج الرأسمالية فإنها تنتج في الوقت نفسه الوسائل التي تزيحها من السوق وتجعلها زائدة من الحاجة، وقد أدى استخدام الوسائل الرأسمالية في الإنتاج الزراعي إلى الاستغناء عن عدد كبير من العمال الزراعيين الذين اضطروا إلى الهجرة إلى المدينة، مما زاد من عرض جيش العمال الاحتياطي.

2-5 الأزمات الاقتصادية: حسب التطور الديالكتيكي والتفسير المادي الذي ترتكز عليهما فلسفته يرى ماركس أن هناك عدة أسباب تؤدي بالنظام الرأسمالي إلى الأزمة ثم الانهيار والفناء وهي:

- التناقض الأساسي في النظام الرأسمالي هو دائما بين الطابع الاجتماعي للإنتاج وبين الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. فالإنتاج في النظام الرأسمالي اجتماعي بينما ثمار هذا العمل تكون خاصة.

- هناك تناقض بين القيمة وفائض القيمة: القيمة ينتجها العمال بينما يحصل الرأسماليون على فائض القيمة والأجور تكون دائما أقل من قيمة ما ينتجه العمال.

*التركيب العضوي لرأس المال هو عبارة عن النسبة بين رأس المال الثابت ورأس المال الكلي. / رأس المال الكلي = رأس المال الثابت + رأس المال المتغير / رأس المال الثابت يمثل فيما ينفقه الرأسمالي على مواد الخام والآلات والطاقة. أما رأس المال المتغير فيتمثل في الأجور.

نتيجة لهذه التناقضات وما يترتب عنها من آثار سلبية (تراكم، التركيز، التقدير) كل ذلك يجعل السواد الأعظم من العمال يعيشون تحت الحد الأدنى للمعيشة مما يعدم التوازن بين العرض والطلب ويظهر الكساد الذي يؤدي إلى إقفال المصانع وطرده العمال فتزداد الأزمة تعقداً إلى أن يصل الأمر إلى ثورة العمال التي تطيح بالنظام الرأسمالي. ولهذا نادى ماركس بأن يتحد عمال العالم ليقوموا بالثورة ضد الرأسماليين. فحسب كارل ماركس الاشتراكية ستقوم على أنقاض الرأسمالية عندما تقوم ثورة اجتماعية يقوم بها تحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين والمتقنين الثوريين، أطلق عليها كارل ماركس "البروليتاريا" للإطاحة بالرأسمالية وإزالة الملكية الخاصة واستبدالها بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج.

وحسب كارل ماركس إقامة نظام اشتراكي لا بد أن يمر بمراحل تاريخية هي:

- **المرحلة الانتقالية:** وهي المرحلة الأولى من بناء الاشتراكية ومن وجهة نظر كارل ماركس هي " المرحلة التي تخرج لتوها من المجتمع الرأسمالي... ولذلك تستمر فيها بعض مخلفات هذا المجتمع القديم في جميع المجالات، الاقتصادية، الأخلاقية، الثقافية...". وفي هذه المرحلة تقوم الدولة بـ:

* تأميم الشركات والمؤسسات الرأسمالية دون تعويض وتحويلها الى ملكية عامة. حيث تقوم بتأميم المصانع والمناجم والسكك الحديدية والنقل البري والجوي والبحري، والمباني ومؤسسات الخدمات العامة، والأراضي وما تحويه من مياه ومعادن، والأراضي الزراعية والغابات.

* لا بد من تنمية الصناعة الآلية الكبيرة وكذا تطوير القطاعات الاقتصادية الأخرى وخاصة

الزراعة؛

* هدف السياسة الاقتصادية في هذه المرحلة هو توطيد التحالف بين فئات الشعب وإشباع

حاجاته المادية؛

* القضاء على الطبقات المستثمرة؛

* للدولة في هذه المرحلة الدور الحاسم في تنظيم الإنتاج وتوزيع الثروات وإدارة الاقتصاد الوطني

بأكمله؛

- **مرحلة الشيوعية:** وهي حسب ماركس الطور الأعلى من تطور النظام الاشتراكي تتميز بـ:

* تطور كبير في قوى الإنتاج؛

* وفرة الثروات المادية؛

* زوال الطبقات المستثمرة وانتهاء استغلال الانسان لأخيه الانسان؛

* سيادة علاقات التعاون والأخوة بين أفراد المجتمع؛

* انسام العمال بوعي عال يمكنهم من الإدارة الذاتية للمجتمع؛

لقد تبلور هذا الفكر بعد الدعوة الى نظام اقتصادي جديد (نظام شيوعي) على أنقاض النظام الرأسمالي عندما قام كارل ماركس وصديقه فريدريك انجلز بإصدار البيان الشيوعي في لندن عام 1848،

وظلت هذه الدعوة حركة سياسية ضمن حركات سياسية متنوعة لتغيير العالم في عدد من الدول الأوروبية الغربية حتى عام 1917

المراجع المعتمدة في إعداد المحاضرة:

- 1- حازم الببلاوي، دليل الرجل العادي إلى تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الشروق، القاهرة 1995
- 2- حازم الببلاوي، عادل أحمد حشيش، تاريخ الفكر الاقتصادي، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية 1971-1972
- 3- حسين عمر، موسوعة الفكر الاقتصادي، الجزء 1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، سنة النشر غير موجودة.
- 4- مدحت القرشي، تطور الفكر الاقتصادي، الطبعة 2، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، 2011.
- 5- محمد عمر أبو عبدة، عبد الحميد محمد شعبان، تاريخ الفكر الاقتصادي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، 2008